المياه المعبَّأة . . .
أين الحقيقة ؟ !

معذرة قارئى الكريم، فأنا مضطرّ للاعتماد على بيانات وحقائق أجنبية، عن ظاهرة (اجتماعية/ اقتصادية/ بيئية/ أخلاقية) آخذة فى الاتساع، وهى انتشار وتزايد استهلاك المياه المعبَّاة فى زجاجات بلاستيكية. عرَّت علىَّ البيانات والإحصائيات، وخاب مسعاى فى البحث عن إدارات رسمية محلية تمدنى بما أريد. فلم أجد مناصًا من النقل عن إدارات وهيئات أمريكية؛ آملاً أن يحرك هذا الحديث (المياه) الساكنة بين ظهرانينا، وينطق الأفواه الساكتة على حقيقة المياه المعباة فى زجاجات، التى أصبح من الأمور الاعتيادية أن تجدها بأيدى الأفراد، كما أنها - الزجاجات التى يتفنن المنتجون فى جعلها براقة وجذابة - أصبحت مفروضة على رواد المقاهى والمشارب والمطاعم وأماكن اللهو والتسلية. فلعل تعرضنا لهذه الظاهرة، التى يتزايد انتشارها فى بلادنا، يكون بداية لمناقشتها،وكما سنرى فيما يلى، فإن طرح القضية للمناقشة فى المجتمع الأمريكى أظهر كثيرًا من الجوانب السلبية، المتصلة بإنتاج وتداول هذه السلعة المستحدثة، التى يتطور إنتاجها بمعدلات

متسارعة، استجابة لظروف المنافسة الشرسة بين الشركات المنتجة لها، والتى يتزايد عددها كل سنة، ويتنوع إنتاجها من هذه المياه، بصورة تثير الدهشة، بهدف مطاردة المستهلك. ومن هذا الإنتاج المتنوع: مياه العيون الطبيعية، والمياه المعدنية، والمنقّاة، والمعطرة، والمكربنة، والمؤكسجة، والمضاف إليها فيتامينات؛ وثمة أنواع من هذه المياه لها مذاق خاص، فمنها ما هو بطعم الليمون، أو الفراولة، بل إن التنوع انسع، فظهرت زجاجات مياه خاصة للأطفال!. لا غرابة - إذن - فى تلك الإشارة، الواردة بتقرير لهيئة أمريكية تعمل فى مجال حماية الموارد الطبيعية، إلى أن نصف الأمريكيين يشربون المياه المعبأة فى زجاجات، وأن ثلثهم يشربها بانتظام، أى لا يشرب غيرها، وهم ينفقون ١٠٧٠٠ دولار على المياه المعبأة، فى كل دقيقة !

إن شركات المياه المعبأة تحشد كل قدراتها لتسرّب للمستهلك اعتقادا بأن مياه لزجاجات البلاستيكية هو قارب الإنقاذ، وطوق النجاة، له ولأسرته، فى مواجهة مياه الصنبور غير الصالحة للشرب، بالرغم من أن الأخيرة تخضع - فى الواقع - وفى معظم الحالات، لإجراءات مراقبة لعمليات تنقيتها، وإجراءات تدقيق لجودتها، أشد من تلك التى تخضع لها المياه (الفاخرة)، المعبأة فى زجاجات. وقد نجحت الشركات لمنتجة، بالفعل، فى اجتذاب جمهور كبير من المستهلكين للمياه المعبأة، بدليل الرواج المتصاعد لتلك الصناعة، الذى

يغذيه توجه يسرى بين هؤلاء المستهلكين، يرى أن استخدام المياه المعبأة دليل على رقى الوضع الاجتماعى، بالإضافة إلى ارتباط تلك النوعية من المياه باعتبارات الصحة والسلامة.

ويفسر بعض المراقبين هذا التوجه بأن هؤلاء المستهلكين إنما يخدعون أنفسهم بالأوهام، إرضاءً لنزعات طبقية ذاتية لديهم؛ وقد تأكد توهمهم حين فشل بعض من ادّعوا أنهم قد (تحولوا) إلى المياه المعبأة فى التمييز بينها ومياه الصنبور؛ فقد أجرى برنامج (صباح الخير يا أمريكا) اختبار تذوق لعدد من الأمريكيين الذين رأوا فى الماء المعبأ ضالتهم، لتامينهم من أضرار مياه الصنبور، ومن أجل نكهته الخاصة؛ فلم يستطع هؤلاء المتفاخرون تمييز مياه الصنبور وكانت من مياه شبكة مدينة نيويورك من المياه المعبأة؛ بل إنهم اختاروا مياه الصنبور على أنها نوع ممتاز من المياه المعبأة المشبعة بغاز الأكسجين. !

ومن المفارقات اللافتة للانتباه أن هيئة حماية البيئة فى الولايات المتحدة الأمريكية، التى يدخل فى نطاق مسئولياتها مراقبة صلاحية وجودة مياه الشرب، التى تمد بها شبكات البلديات المنازل، لا تهيمن على صناعة تعبئة المياه، فهذه من الصناعات الغذائية، وتخضع - بالتالى - لهيئة أخرى، هى هيئة الرقابة على الأغذية والعقاقير، التى لا تعتد بالقياسات المعيارية التى تتشدد بها الهيئة الأولى، فى مراقبتها لنوعية المياه المعبأة؛ وكل ما يهم هيئة الأغذية

والعقاقير هو أن تكون المياه معبأة فى ظروف، وبشروط صحية قياسية، تطلبها الهيئة فى الأطعمة التى تراقب إنتاجها، وهى لا تراجع منتجى المياه المعبأة فى مسائل مهمة أخرى، مثل نوعية مصدر المياه، ومدى قربه من المنشآت الصناعية وخزانات الصرف الصحى الأرضية. ويؤكد أحد المراقبين على أن نوعًا من تلك المياه المعبأة، تحمل زجاجته ملصقًا ورقيًا عليه صورة جبل تحته بحيرة، بما يوحى بأنهما امصدر الطبيعى لمحتوى الزجاجة؛ والحقيقة هى أن مصدر مياه تلك الزجاجة عبارة عن بئر غير بعيدة عن منطقة صناعية، تصل تسريبات من صرفها إلى مياه تلك البئر !. ومن جهة أخرى، فإن ضوابط هيئة حماية البيئة الأمريكية تشترط خلو ماء الصنبور من الفيروسات والبكتيريا و (الانتاميبا كولاى)؛ أما الهيئة المشرفة على المياه المعبأة فإنها لا تتشدد بهذا الخصوص، وتضع حدودًا قصوى لتلوث مياه الزجاجات بهذه الكائنات المجهرية المرضة.

وقد شاركت جهات رقابية وبحثية كثيرة فى الجدل الدائر حول المياه المعبأة، فأصدر مسئول بإحدى هذه الجهات بيانا يقول بأن ٤٠٪ من المياه المعبأة هى، فى الحقيقة، مياه صنبور خضعت للمعالجة، وأحيانا دون معالجة !، ويشير البيان إ لى أن أكثر نوعين من المياه المعبأة رواجًا فى أمريكا تنتجهما شركتان شهيرتان للمياه الغازية، ومصدر المياه فى أحدهما هو مرفق المياه فى ولاية أمريكية، مضافًا إليه بعض المعادن !. وينتهى بحث منشور، أعده الباحثون فى

هيئة رقابية بحثية أمريكية إلى أنه بالرغم من أن أحدًا لا يستطيع الجزم بأن كل مياه الصنبور جيدة، فبعضها لا يتوافق والشروط الصحية القياسية، إلا أن ذلك لا يجعلنا نؤكد على أن المياه المعبأة أكثر أمانًا من مياه الصنبور. ويؤكد علماء من جامعة (جنيف) هذه الحقيقة، ويضيفون بأن ٥٠٪ من الزجاجات المعبأة بالمياه لا تختلف عن مياه الصنبور، إلا فى احتوائها على بعض المعادن والأملاح المضافة، وذلك لا يمنحها ميزة عن مياه الصنبور، ولا يجعلها أصح منه. وكانت منظمة الصحة العالمية قد أصدرت بيانًا، فى عام ١٩٩٧، يقول بأن المياه المعبأة ليس لها قيمة غذائية أعلى من مياه الصنبور، التى تصل إلى المستهلك، دون عناء، فى بيته، والتى تقل تكلفتها كثيرًا عن المياه المعبأة؛ فثمن زجاجة واحدة من المياه الأمريكية المعبأة يساوى ثمن ألف جالون من مياه الصنبور، وثمن لتر واحد من مياه الزجاجات البلاستيكية يعادل ثلاثة أضعاف ثمن لتر البنزين .!

ومن الدراسات التى توصلت إلى نتائج تدين المياه المعبأة فى زجاجات، دراسة دامت لأربع سنوات، أخضعت خلالها ألف زجاجة من ١٠٣ أنواع للتحليل؛ فوجد أن ثلثها يحتوى على مخلفات من الزرنيخ وبعض المركبات المسرطنة، بمستويات تركيز فاقت، فى بعض الأحيان، المستويات المسموح بها من قبَل الإدارات الصحية والصناعية الأمريكية. وأجريت دراسة ثانية على مئات من

الزجاجات، من ٣٨ نوعًا، من ولاية كاليفورنيا وحدها، فوجد الزرنيخ فى عينتين، ومركبات كلورينية فى ٦ زجاجات، وكميات محسوسة من التولوين فى ٦ زجاجات أخرى. واهتمت دراسة ثالثة بمقارنة ٥٧ عينة من المياه المعبأة، بعينات من مياه الصنبور، فى ولاية كليفلاند الأمريكية؛ فكانت ٣٩ عينة من مياه الزجاجات أنقى من مياه الصنبور، بينما احتوت ١٥ زجاجة مياه على مستويات من التلوث البكتيرى أعلى من مياه الصنبور؛ وهذا يعنى أن كل إنتاج المياه المعبأة ليس على ذات المستوى من النقاء والصلاحية.

ويتدخل أنصار البيئة ونشطاؤها فى الجدل، ويتساءلون: ما دام الأمر كذلك، وهذه هى حقيقة المياه المعبأة، فما حاجتنا إلى أن يتحمل كل من المستهلك والبيئة أعباء إضافية ؟. فالمستهلك هو الممول الحقيقى لهذه الصناعة، غير الصديقة للبيئة، التى تضخمت فى السنوات القليلة الماضية، والتى تبلغ قيمة مبيعاتها، فى العالم، حاليًا، ٣٥ بليون دولار/ سنة. وقد شهد عام ٢٠٠٢ مبيعات بلغ حجمها ٢٤ بليون لتر من المياه المعبأة، فى الولايات المتحدة وحدها، دفع المستهلك الأمريكى ثمنًا لها قدره ٨ بلايين دولار !؛ بزيادة قدرها ١١٪ عن السنة السابقة؛ مما يجعل من هذه الصناعة الأسرع نموًا بين صناعات المشروبات عامة، متخطية مشروبات تقليدية شائعة، مثل القهوة والحليب، محتلة المرتبة الثانية، بعد المشروبات المبردة. وتعلق منظمة بيئية سويسرية على هذه الإحصائيات

فتصف صناعة تعبئة المياه بأنها إهدار للمال، واستنزاف للموارد الطبيعية، وتحميل للبيئة بضغوط إضافية. وعلى سبيل المثال، تبين أن شركة أمريكية منتجة للمياه المعبأة تسحب المياه من بئر طبيعية بمعدل أكثر من ألفى لتر فى الدقيقة؛ ويدوم العمل لمدة ٢٤ ساعة فى اليوم، ولسبعة أيام بالأسبوع، وطوال أيام السنة!. إن هذا المثال يغذى تخوفًا من أن تؤدى هذه الصناعة المتوسعة إلى استنزاف خزانات المياه الجوفية، وهى مياه تحتاج لزمن طويل لاستعواضها، ويعتبرها العلماء من الموارد الطبيعية غير المتجددة.

وتمثل الزجاجات والأوانى البلاستيكية التى تعبأ فيها المياه أعباء بيئية، بأكثر من منظور؛ إذ يخدم هذه الصناعة صناعة أخرى، تنتج هذه الزجاجات والأوانى، تستهلك مليونا ونصف مليون طن من خام البلاستيك، على المستوى العالمى، سنويًا. ومعظم هذه الكمية هى مادة من مشتقات النفط (بولى إيثيلين تير فثالات). إنها، بالواقع، من المواد البلاستيكية قليلة السمية، غير أن معالجتها لإنتاج البلاستيك الشفاف يتخلف عنها انبعاثات سامة، من عناصر النيكل والإيثايل بنزين وأكسيد الإيثيلين، تعادل مائة ضعف لما ينبعث من إنتاج كمية مماثلة من الزجاج. وعلى صعيد بيئى آخر، فإن صناعة أوانى وزجاجات تعبئة المياه، تستهلك فى الولايات المتحدة الأمريكية وحدها، مليونا ونصف المليون من براميل النفط سنويًا،

أى ما يكفى لتوليد الطاقة لربع مليون بيت، أو لإمداد مائة ألف سيارة بالوقود، طوال سنة كاملة !

وبعد استهلاك المياه المعبأة، يكون مصير الزجاجات الفارغة مستودعات القمامة، ويقدر أحد المسئولين البيئيين أن مستودعات النفايات الأمريكية تستقبل ٩ من كل ١٠ زجاجات مياه فارغة، أى بمتوسط قدره ٣٠ مليون زجاجة، فى اليوم الواحد، ويمكن أن يطول بقاء الزجاجة فى البيئة، دون تحلل، لألف عام كاملة!. ولا يمكن التعويل على عمليات التدوير للتخلص من هذه النفايات، فصناعات البلاستيك الأمريكية لا تستوعب إلا ٥٪ فقط، من مخلفات البلاستيك، وتعتمد على ٩٥٪ من خامات أصلية كمدخلات. لا سبيل - إذن - للتخلص من جبال زجاجات المياه الفارغة غير الإحراق؛ والثابت أن إحراق البلاستيك ينتج عنه ملوثات غازية خطيرة، منها (الدايوكسين)، وهى مادة مسرطنة؛ كما تحتوى مخلفات الإحراق الصلبة على عناصر فلزية ثقيلة؛ فإذا كان التخلص من المخلفات البلاستيكية بالطمر، نتج عن طمر البلاستيك مادة (الفثالات)، التى تتسرب إلى المياد الجوفية، التى هى أحد المصادر الرئيسية للمياه المعبأة !!